إنهم يبيعون الشمس في أسوان!

التصوير

سيد سلامة

تصوير محمد سامي

لا أعرف سببا واضحا لما حدث .. فهل هي الصدفة .. أن أسأل عن هذا المبنى الجميل الأنيق الذى يطل على النيل ؟ .. ولكن بعد أن سألت وعرفت وقرأت عن المبنى – شدتنى أحداث دارت فى داخله . والمبنى عبارة عن فيلا تسمى « المنيرة » والموقع يحيط به حديقة على مساحة أربعة أفدنة .. وظاهونة هواء على الطراز الفولتدى ثم حارس وبستانى وحمار وقارب .

كل شئ داخل الفيلا يحمل حرف « ف . ف » إنها اختصار لاسم مليونير ألمانى عجوز . كان يزور أسوان كل عام . لكى يدفن نفسه فى رمالها . وأشياء أخرى . وكانت له قصة انتهت بانتهاء الحرب العالمية الأولى . عندما انهزم الألمان . وهرب الرجل بجلده من أسوان . عندما ألقت إليه إحدى الطائرات رسالة من فوق فيلا المنيرة .

بعدها اختفى ولم يعد مرة أخرى .

ولقد كانت هذه الفيلا مدخلا للكتابة عن أسوان . ولكن بطريقة أخرى . فلقد كتبنا وملأنا من كثرة الكتابة عن السياحة . وأصبحت الكتابة فى هذه المسألة تمثل عبئا على من يكتب ومن يقرأ أيضا . وكانت فرحة فى أن أتحدث عن أناس نسيناهم من أسوان . ووضعناهم فى « دفاتر أحوال » التاريخ . مع أنهم قد صنعوا صفحة من التاريخ نفسه .

وتعد مرة أخرى إلى فيلا « المنيرة » . لقد استولى عليها الإنجليز بعد رحيل صاحبها الفرفزيزفورل . ملك اللحوم المقددة فى ألمانيا . وعندما فتحوها وجدوا بها حجرة مسحورة . بها جهاز لاسلكى وكتاب وشفرة . فأيقنوا أن « الفرد » كان جاسوسا على مستوى عال لألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى .

وتسألنى . وما علاقة هذه المقدمة الطويلة عن الفيلا . بما سوف تتحدث عنه . فأقول لا أنا ولا أنت . ولا حتى المؤرخ المصرى الكبير عبد الرحمن الرافعى كان يعرف شيئا عن أحداث أسوان عام ١٩١٩ . والرجل يعترف فى رسالة كتبها إلى أحد أبطال ثورة أسوان عام ١٩١٩ وهو محمد مظهر سعيد . فيقول له « لقد سجلت أحداث ثورة ١٩١٩ مستندا إلى ما ذكرته الصحف ، وما وصل إلى من مستندات ، وما سمعته بنفسى ممن اشتركوا فى الثورة . وكنت أشعر دائما بأن هناك حلقة مفقودة فى السلسلة ، وفصلا ناقصا فى تاريخ الثورة . فليس من المعقول ألا يشارك إقليم أسوان فى هذه الثورة ، وقد وقفت فى سرد الحوادث عند أسيوط ، وعذرى .. أن الصحف لم تشر إليها . ولم يذكر أحد من أهلها شيئا عنها » .

ومحمد سعيد مظهر قد ألف كتابا عن ثورة أسوان . بعنوان سجين ثورة ١٩١٩ . ولم يتقدم أحد غيره لكى يكتب شيئا .

ولقد شاركت أسوان فى ثورة ١٩١٩ . ولكن بطريقة مميزة . فقد اجتمعت اللجنة التنفيذية العليا التى تشكلت لقيادة الجماهير . فى فيلا المنيرة . وحددت يوم ١٥ مارس للقيام بالمظاهرة الكبرى . وأقسمت اللجنة اليمين على تنفيذ عدة قرارات منها . تأليف مجلس وطنى يتولى الحكم العمل فى مديرية أسوان . وتعيين فرقة من الحرس الوطنى المسلح من المتطوعين لحراسة مركز اللجنة التنفيذية العليا . ثم تلقى الأوامر وتنفيذها ، والأستيلاء على دور الحكومة ، وإقالة مدير المديرية . مع استمرار الموظفين فى أعمالهم ، وصرف مرتباتهم الشهرية كالمعتاد من الأموال الأميرية حيثما وجدت . والمحافظة على خزان أسوان ، على أن تعلن هذه القرارات للشعب أمام سراى المديرية يوم المظاهرة .

والذى يهمنا من أحداث أسوان . كيف التقت الأهالى مصر كلها من الغرق . عندما وضع الإنجليز الشحنات الناسفة فى عيون الخزان . وكيف التحم الجيش فى أسوان مع الأهالى أثناء المظاهرة .

لقد اجتمع الأهالى يوم ١٥ مارس فى المكان الذى حددته اللجنة التنفيذية العليا . أمام مدرسة الصنايع . فى هدوء شديد . وقبل التحرك . تطوع الجيش الذى كان فى حراسة الخزان لتنظيم المظاهرة .

وتتذكر محمد سعيد أحد أبطال ثورة أسوان يتحدث ويصور لنا اللقاء بين الضابط محمد على سعيد الذى أمر بإنزال الجيش إلى المظاهرة وبين مدير المديرية .

يقول المدير : كيف توافق على دخول الجيش فى المظاهرة بدون إذنى منى .. أنا مدير المديرية .. والحاكم المسئول . أحذرك أن تعود بالأوردة إلى الخزان فورا .. وسوف أبلغ الرئاسة فى القاهرة .

فيجيب الضابط المصرى قائلا بجود .. أنا

د. محمد صبرى زكى – محافظ أسوان
انهى الجدل الإدارى

إبراهيم الدسوق المسئول عن السياحة العلاجية .. سوف نبيع الشمس

لا تقلق أوامر منك .. وافعل ما بدا لك إذا استطعت . وإنى أنذرك . إذا أمرت البوليس بالتحرش بالمظاهرة فسأتدخل بالقوة لحماية الشعب فى أسوان . وتحمل أنت وحدك المسئولية . إنى أنصحك أن تعود إلى منزلك .

وانسحب المدير وهو يقول .. إذن فتحمل أنت المسئولية . وسارت المظاهرة كما هو مخطط لها ، ووقفت أسوان كلها ، وبدأت اللجنة التنفيذية فى وضع قراراتها موضع التنفيذ . فأقالت مدير المديرية . وطالبته بعدم مغادرة منزله . دون اعتراض أو مقاومة .

وفى اليوم التالى دعى المجلس الوطنى للاجتماع فى فيلا المديرة . ووزع الأعضاء على أنفسهم الأعمال والاختصاصات . على أن يشرف المجلس على كل شئون الحكم فى أسوان ، وبالفعل أدار المجلس الوطنى شئون أسوان كلها .

لكن شيئا قد حدث خلال هذه الأيام . وهو أن الإنجليز قد تحصنوا فى مستعمراتهم ، وأرادوا أن يفعلوا شيئا بحطم الثورة كلها . وكانت الفرصة أمامهم . حيث خزان أسوان . فسارعوا فى وضع شحنات من الديناميت فى عيون الخزان . استعدادا لنسفه . وساعتها سوف تغرق البلاد . وتغرق الثورة أيضا . وكان على المجلس الوطنى أن يحمى الخزان مما قد يصيبه . وكلف قوات الجيش التى كانت تحرس الخزان . بفرض الحصار على مستعمرات الإنجليز . وعدم السماح لأحد بالدخول أو الخروج منها . وتولى المهندسان أحمد حسين ومحمد عبد الله إدارة الخزان . بعد أن نزعا الديناميت من عيون الخزان .

وساد الهدوء أسوان حتى يوم ٢٧ مارس عندما ألقى القبض على أربعة من زعماء الثورة فى اسوان . وتم اعتقالهم . وصدرت الأحكام بإعدامهم بدون محاكمة . ويتدخل القدر لإنقاذهم وهم فى ساحة الإعدام . وينتهى الأمر بمحاكمتهم مرة أخرى . ثم براءتهم .

تلك سطور عن بطولات شعب اسوان . فهل يعرف الكتيبون منا شيئا عنها ؟ ..

وكم من بطولات وأبطال فى مصر . لكن علينا أن نبحث عنهم .. وتلك مشكلة .

ثقافة .. ليست للبيع

ويعتز الاسوانيون بأسوان . إنهم يقولون نحن الأصل . ويقولون أيضا من هنا خرج العقاد إلى النور . وهنا دفن أيضا . والواقع أن مقبرة العقاد لا تليق بمقامه العظيم . ولما سألت قالوا .. لقد أعد تخطيط من جديد يشمل القبرة كلها والمحال .

وفى أسوان هذه الأيام تجربة جديدة . فقد أراد المحافظ الدكتور محمد صبرى زكى أن يبيع الثقافة . ولكن بالتقسيط المريح . فهل نجح ؟ والفكرة . أن يقتحم الكتاب كل بيت . وإذا كانت المشكلة فى توفير المبالغ اللازمة للشراء فإن الحل سهل وبسيط . وهو أن يحصل كل من يريد شراء مكتبة . على الكتب اللازمة له . ثم يقسط الثمن على أقساط شهرية . ونجح المشروع بالتعاون مع عادل بركات المسئول عن دار المعارف فى أسوان . التى تبنت هى الأخرى المشروع . وفى يوم واحد حصل أكثر من ٢٥ شابا وأسرة على الكتب المطلوبة . وقد حدد المشروع ثلاثة أنواع من الأقساط بين ٢٥ ومائة جنيه . والفكرة جيدة . إن ما ينقص شبابنا الآن هو المزيد من الثقافة . إن مدينة مثل لندن يدور الكتاب فيها عشر مرات كل عام . أى أنهم مهتمون بالثقافة اهتماما أساسيا .

ولقد عاش محافظ أسوان تجربة طريفة بحكيها بنفسه . قالوا له سوف يزور سفير سرى لانكا أسوان . وكان من الواجب على المحافظ أن يلتقى به . والدكتور صبرى لا يعرف كثيرا عن سرى لانكا . فلم يجعل الرجل وطلب الكتب . واتصل بأصدقائه فعرف الكثير عن هذا البلد . من نظامه السياسى حتى مناخه .

ان مشروع الثقافة بالتقسيط قد لقى نجاحا كبيرا حتى الآن . من العاملين فى الوزارات والقطاع العام والشركات . ومطلوب تعميمه فى مختلف المحافظات .

وسوف نبيع الشمس !

وتجربة أخرى جديدة فى أسوان . ليست عن الثقافة هذه المرة . ولكنها للترفيه المكلف جدا . وللعلاج من بعض الأوجاع . والفكرة لجذب السائح ولكن بطريقة غير تقليدية . إذ أن المسئولين فكروا أن يبيعوا شمس أسوان . والأمر لا يكلفهم شيئا . سوى تنفيذ ما يسمى بمشروع السياحة العلاجية . وفعلا نفذ المشروع وسوف يفتتح خلال أيام . إن أسوان مشتى عالمى متميز .

والسائح يعرف ذلك . لكنه يريد أن يجد شيئا مفيدا . لقد كانوا يحضرون إلى أسوان على نقالات من بلادهم الباردة جدا . ويدفنون أنفسهم فى رمال أسوان الدافئة جدا . وبعد أيام يعودون إلى بلادهم على أرجلهم .

والفكرة – أى فكرة السياحة العلاجية – ليست جديدة . إنها قديمة . والغريب أن بلادا باردة تنفذها . مثل أمريكا ورومانيا . فعندهم أماكن للسياحة العلاجية يسمونها S.P.A ولا أعرف سببا واضحا لاتزعاج إبراهيم الدسوق مدير أحد الفنادق فى أسوان والمسئول عن المشروع . عند ما أصر على تسمية المشروع بالسياحة العلاجية . لكنه يقول : المشروع ليس كذلك . ولكنه ناد صحى .

ولا يهمنا الاختلاف على التسمية . المهم أن المشروع تكلف مليون جنيه . وكل معداته من الخارج . ويقول إبراهيم الدسوق . ان البرنامج يستغرق حوالى ١٥ يوما . ويشمل البرنامج حمامات مياحة ساخنة وباردة ، ومياونا وحمامات رملية ، وحمامات سويسرية وبخار ، ومانيو دراما ، وتدريبات رياضية ، وتدريبات على معدات حديثة لعلاج بعض الحالات . وكذلك غرف للاسترخاء ، وغرف للمساج والتجميل ، والعلاج بالكهرباء . والمشروع يتضمن قسمين . أحدهما للرجال . وآخر مشابها للنساء . ويشرف على البرنامج أطباء علاج طبيعى ، وإخصائيو تغذية ومتخصصون من معاهد التربية الرياضية .

المحافظ .. والحول الإدارى !

وفى أسوان مواطنون كغيرهم « يعانون » .. وينتظرون كل يوم إلى تحقيق ما يطلق عليه « رفع المعاناة عن الجماهير » . فهل نجح محافظ اسوان محمد صبرى زكى فى رفع المعاناة عن شعب أسوان ؟ .. لقد كان الرجل وكيلا لوزارة الصحة . ليفا . ولا يعرف بالروتين ، والفرصة أمامه ، بعد أن أعطى الرئيس السادات كل

فى اسوان .. الشمس والثقافة للجميع ولكن بالتقسيط المريح حتى يدخل الكتاب كل بيت

● المشكلة فى مجال السياحة .. اننا لم نعرف كيف نجذب السائح .. فهل آن الأوان

الصلاحيات والمسئوليات للمحافظين .. حتى نقضى على « الحول » الذى كان يصيب كل موظف فى أى محافظة . لقد كانت إحدى عينيه على الوزير التابع له فى القاهرة . والأخرى على المحافظ . فأصبح كل موظف « أحول » العينين . لا يرى بوضوح ما هو المطلوب .

وأسأل المحافظ عن ظاهرة الحول الإدارى فيقول . طوال خدمتى فى أسوان . لم أرجع إلى القاهرة أبدا . إلا فى أربع مسائل خاصة بالكهرباء والتموين .

ويسألنى الدكتور صبرى قائلا : من الطبيعى أنك قد تسألنى عن رفع المعاناة عن جماهير أسوان .. معك حق .. ان القضية جادة جدا . ومعقدة .

خذ مثلا .. مشكلة اللحوم . ورفع أسعارها . إننا فى أسوان لسنا منتجين للحوم . لكننا متجهون للأسماك . إننا الآن نسيطر تماما على عملية توزيع السلع . وتتحرك لإيجاد البدائل عند حدوث أى أزمة فى سلعة معينة . أما المراقبة فإنها الأساس فى العملية كلها . لقد ضبطنا فى خلال شهر سبتمبر وهو شهر الخطر ١٣٩ قضية تموين .

ولم نتهاون . صحيح أن الرقم انخفض حتى وصل إلى ٧٥ قضية فى شهر نوفمبر الماضى . لكننا بالمرصاد لكل من يتاجر فى أقوات الشعب .

ثم يقول محافظ أسوان .. لقد فكرنا فى اللجنة المسئولة عن توزيع السلع بالمحافظة . وكيف نضمن توزيع السلع . وخاصة اللحوم والأسماك على مستحقيها . فقررنا أن نزيد من عدد الجمعيات التعاونية « الفئوية » ففتحنا ٤٠ جمعية جديدة . وأصبح عدد هذه الجمعيات الآن ٢٩٠ جمعية . أما مسألة ربط السلع على البطاقات . فسوف تنفذ التجربة فى يناير القادم .

ويستطرد الدكتور محمد صبرى زكى قائلا .. أما مشكلة زيادة الإنتاج لتحقيق الأمن الغذائى . فإننا نسير فى الاتجاه السليم نحو تحقيق الهدف . فعندنا أكبر مشروع لإنتاج الدواجن والبيض فى مصر . لقد تكلف ٥ ملايين جنيه حتى الآن . ويفتتح فى يناير القادم . وساهمت هولندا وبريطانيا بخبراتهما فى المشروع . أما بنك القاهرة فقد ساهم بحوالى مليونى جنيه . والمحافظة بحوالى مليونى جنيه . وقد اتفقنا على أن يساهم الأهالى فى المشروع بحوالى مليون جنيه أخرى . وملحق بالمشروع مخبز آلى . ومصنع للعلف وثلاجة .

وهناك مشروع آخر لتطوير زراعة وتصنيع قصب السكر فى أسوان . ويقدر رأس المال بحوالى مليونى جنيه . وأخذنا قرضا من اليابان حوالى ٩ ملايين جنيه . بفترة سماح عشر سنوات وفائدة ٣.٥ فى المائة . وقد انتهت وزارة الزراعة من دراسة المشروع . وسوف تساهم المحافظة بحوالى ١٠ فى المائة وصندوق القصب ١٠ فى المائة وشركة السكر ٢٠ فى المائة وشركة ادفو ١٠ فى المائة والشركة العقارية ١٠ فى المائة . والباقى يعرض على الأهالى فى صورة أسهم . إن أسوان تزرع ٦٠ ألف فدان من قصب السكر . وقد تدهور المحصول بشكل خطير .

ومشروع آخر . عبارة عن إنشاء شركة لزراعة النخيل عن طريق استيراد أنواع من النخيل من الخارج وزراعتها فى مساحة ألف فدان شمال وجنوب أسوان . والمشروع يتكلف حوالى مليونى جنيه أيضا . ومطلوب مساهمة الأهالى بحوالى ربع مليون جنيه . هذا غير المشروعات الأخرى الخاصة بتربية الماشية فى منطقة أبريم .

تلك خلاصة جولتى فى أسوان . بين التاريخ والكتب . وأناس يرفعون أيديهم لتخفيف العبء عنهم ويعتبرون بأنهم أسوانيون ! ! □

قصة الحب التى يعيشها طفلك !!

زهيرة البيلى

أكتوبر

منذ حوالى ثلاثين عاما . قاد الدكتور « سبوك » فى عالم تربية الأطفال ثورة كبيرة عندما كتب كتابا يحمل عنوان « كيف تعالجين وتربين طفلك » وكانت الكلمة الجوهرية بهذا الكتاب . هى الحرية . والنتيجة أجيال من الأطفال النموذجيين الذين تغيروا وتبدلوا فى « دنيس الرعب » « للكونتيس دى سيجور » .

لقد أحس الدكتور « سبوك » بالخوف من هذا الرعب فأعاد تنظيم مرماه فى عام ١٩٧٧ . ولم يكن قد تحدث من قبل عن الحرية الفردية . ولم يحس الناس قراءة كتابه .. هذا بالرغم من أنه قال للآباء : « لاتنسوا أن تربوا أولادكم » ! !

وقد جاء اليوم الذى ارتفعت فيه الأصوات أكثر فأكثر لتكون صدى جديدا لصوت الدكتور « سبوك » وإجابة لسؤال يحتم يردده لكل من تقع على عاتقهم تربية الأطفال : هل يجب أن يعود الآباء من جديد للسلطة العاجزة أو أن يستمروا فى تطبيق الموقف غير القيادى ؟

على هذا السؤال تجيب الطبية النفسانية « كريستيان هولمز » فى كتاب جديد بعنوان « الذرية والتطور الاجتماعى للطفل » صدر عن الصحافة الجامعية بفرنسا . حيث تلقى الطبيبة الفرنسية محاضراتها بجامعة « لوفان » — وهى أم لطفل .. وأرادت « كريستيان » أن يكون هذا الكتاب . عونا للآباء على تربية أولادهم .

حقيقة إن مجتمعات العالم تعيش أزمة . لقد بدأت القيم تنهار فى العالم كله الذى أخذ يفقد طريقه . وتردد التربويون بين أسلوب القهر والعصا والزجر . وكان الآباء ويأتى الأجهزة المسئولة عن تربية الطفل شهودا على هذا الدمار الجديد . هل الطفل فى حاجة إلى عقاب أولا ؟ وهل تلك الأمور كما هى ؟ أو هى « حرب » أو « سلام » ؟ وماهو الثمن ؟

من اليقين أن هناك أمورا قد تغيرت وتبدلت فى مجال تربية الطفل الذى أصبح ملك « الملك » لذلك جاء هذا الكتاب فى وقته ليعيد الطمأنينة

إلى الآباء. والكلمة الأولى التى دار حولها الكتاب كانت «الحب». فكل تربية محترمة هى قصة حب تجمع بين طرفين. الطرف الأول هو الطفل. ذلك الكائن القائم بذاته وله احتياجاته ومشاكله. والطرف الآخر هو الانسان البالغ الذى يكون بمثابة مرشد للطفل لكنه مرشد غير مسيطر أو متداخل.

إن عنوان الكتاب يمكن أن يؤدى الى سوء فهم البعض. لكنه فى الحقيقة نوع من التشجيع. فهو ليس قصة عادية لكنه خطوة نامية واعية تأمل تفتح الذهن والقلب معا. فالذين يعتبرون أن تربية الأطفال مثل الوصفة الطبية لن يجدوا فى هذا العمل إجابات ساخنة أو جاهزة. لكنهم سوف يجدون عبارات جميلة وعبارات مركزة تعطى لهم مفتاح التربية الواضحة. فالانسان البالغ الذى يجد التطور النفسى للطفل هو انسان محبوب. ودود وعطوف. يركز حياته ونفسه للطفل. ولقد أسئ فهم السلطة غير القيادية. فى علم تربية الأطفال لذلك كان الطفل فى حاجة إلى الأوامر والمتطلبات الأخلاقية التى يفهمها. حتى يستطيع أن يستبطنها تدريجيا فى سلوكه نحو الاستقلال الذاتى.

إن الطبيبة الكاتبة تتحدث بصوتها الحازم الهادئ عن عملها الجديد بحماسة. وتعبر هذا الكتاب – وليد محاضراتها الجامعية – عملا علميا بدون شك. فى الطريق إلى أن يؤثر ويتأثر منه الناس.

تقول الكاتبة إنه منذ سنوات كانت التربية غير القيادية ظاهرة. ولكننا اليوم فى طريقنا إلى التحرر والتخلص من كل الأبحاث اللاقيادية. والمعنى الذى اسئ فهمه هو «ترك الطفل يفعل مايريد». وهذا الأسلوب فى التربية تم الغازه كلية الآن. لأن الطفل فى حاجة دائما إلى نماذج تكون هى بمثابة القدوة له. أو القبلة التى يتجه إليها فى حياته.

فى شهر يونيه الماضى لم يتردد وزير التربية والتعليم الفرنسى السيد «بولاك» فى استخدام لهجة جديدة وأسلوب راق يخاطب به التربويين.. فقد قال: «لاتوجد تربية بلا أخلاق. إنها أساس كل تربية. فلابد أن يتعلم الشاب كيف وأين يكون موضعهم بالنسبة للمجتمع وذلك بأسلوب نقدى حتى يتحقق فهم لعمل عبء أنفسهم. إن للآباء دورا أساسيا فى هذا المنهج الجديد. عليهم أن ينسجوا مع أبنائهم روابط الحب. فلا داعى أن يحتويهم دائما «حاجاتهم أو أملاكهم الصغيرة» ويلقوا برغباتهم عليهم. حيث إن الآباء الذين لم يكلوا تعليمهم فإنهم يطالبون أبناءهم بتعويض هذا النقص. ويطالبونهم بتعطية هذا الطموح الفاشل. وهناك أمهات يثرن تحرد بكاء الطفل لأن الدمية التى كن يخيلنها مبتسمة هادئة ووديعة دائما لاتبكى. بعد ذلك لايفهم الآباء. لماذا تجرؤ البنت أو الولد على «الرد» عليهم وهنا ترد الكاتبة موضحة أن وظيفة الآباء هى أصعب الوظائف كلها. فتربية الطفل تعنى ايضا التعرف عليه كما هو. والمشكلة كلها تتركز فى الارتباط ثم الانفصال. وهذا بالنسبة للآباء والأبناء معا. ولتحقيق النجاح بالرغم من تلك المشكلات. فإن على الآباء أن يخبروا اساليبهم تدريجيا حتى تتوافق مع نمو الطفل. فهذا الكائن الصغير قادر على تعلم الكثير. وللأسف فإن اغلبية الآباء غير قادرين على تقبل هذا. وهناك آباء مازالوا ينادون أولادهم الذين فى سن الثلاثين أو الأربعين «يا صغيرى» أو «ياطفلى» ومع ذلك فإن دائرة الطفل تتسع ابتداء من أسرته. ثم المدرسة ثم احتكاكه بالشباب والأصدقاء والمجتمع وكلها احتكاكات للحياة. فالعالم كله لايعيش ولايتأثر ولايفكر بأسلوب واحد. ربما تكون هذه صدمة بالنسبة للبعض. ولكنها حقيقة ضرورية حتى يقطن العقل لتطبيق أسلوب أكثر نقدا. إنها أحسن طريقة لفهم العالم.

بذلك يكون الأطفال فى حاجة لبعضهم البعض. فهم أحيانا أكثر شرا أو نشاطا من البالغين. فى سن السابعة أو الثامنة يحب الأطفال أن يتميزوا عن أصدقائهم من البنات أو «الصبيان» بشكل أن يتخذوا لأنفسهم مقاييس خاصة. ولكن يجب ألا نخطئ فى هذا فحتى إذا سار نمو الطفل على أحسن وجه. فإنه يتطلق وينصب دائما فى سن المراهقة على الصراعات والآلام.

إذن فالمراهقة لامناص منها والغريب أن التربويين يعتبرونها صحية بالنسبة للشباب.. فعندما يلقى الشاب بسلطة ابويه فإنه يبحث عن طريقه داخل المجتمع. يبحث لنفسه عن موضع داخل المنهج المهنى والأيديولوجى حيث تتوار الخلافات وتتفجر الصراعات. ويصبح جزءا من التجربة الانسانية التى تعتبر عامة تبعا للتطور. فأية حرية اذن هذه التى يتحدث عنها الآباء والأبناء؟

تقول الكاتبة: إن حريتنا مقيدة دائما بحرية الآخرين. ولكنها تتركز أساسا فى أن يتحمل كل واحد منا عبء نفسه. فالشئ لاتعلمه الا تدريجيا فلابد على الطفل أو الشاب أن يكون قادرا على تحمل نتائج تصرفاته فى صورة الاختيار المقدم له ويجب ألا يخاف الآباء من أن يكون لأبنائهم كيان. هذا دون الخلط بين السلطة والتسلط.

فى حديث صحفى للديوفسور «كوليت شيلان» تقول إن القوة الحقيقية هى التى تنبعث من شخص متزن مستقر متماسك على وفاق مع نفسه. فمعنى أن يكون الإنسان قويا. لايعنى على الإطلاق أن يكون متسلطا. فأهم شئ بالنسبة للطفل هو الاستقرار والاستمرار والترابط. وأكبر ضرر بالنسبة له هو التعرض لتقلبات الأمزجة وتغير القواعد بين يوم وليلة لتصبح ممنوعة. وعندما يتعلم الطفل كيف يقول «لا» أو «أريد» فإنه اساس التحرر للآباء! ومعظم الأزمات تتفجر مع عبارات مثل «تعال إلى المائدة عندما آذن لك..» أو إذا كنت تحبنى فأفعل مأريد.. وتضيف الطبية «شيلان» قائلة: «من المهم جدا التركيز على توفير الأمان للطفل، والقوانين والاجراءات مع الضبط هى أفضل من أى روابط سلبية. لذلك لابد أن تكون العلاقات مفهومة وفا معنى إيجابى: وهذا يعنى أن يشرح للطفل مايفعله مع تبصيره بفجوات تقدمه وطريقة الوصول إليه. فقد انتهى زمن العقاب الأعمى الذى كان يخضع له الطفل بلا تفكير. فلابد أن ندفع الطفل لأن يعمل عقله وأن يفكر فى نتائج تصرفاته. فالطفل مهما كان صغيرا يستطيع أن يفرق بين الخير والشر، ويستطيع أن يفهم ماهو مسموح به وماهو ممنوع. ومحاولة السيطرة بين أحد الطرفين – الطفل أو الآباء – هى محاولة خاطئة.

فالأسرة المثالية هى الأسرة التى يتم فيها التبادل حيث يحدث تأثير الواحد على الآخر. دون الحلم بالسلطة.

وهذا الكتاب يؤدى إلى نوع من العلاقات الانسانية الحقيقية والعميقة التى لاتهدف إلى نقد المجتمع فالمسئولية لاتقع على عاتق الآباء وحدهم ولكن المدرسة أيضا فأمام المدرس دور عليه أن يملأه. لذلك لابد أن تتركز جهوده على احتياجات الطفل. وأن يسمح له بالتعبير عن نفسه وأن يرشده حتى ينال التربية المناسبة. وأن يساعده على المرور من أخلاق مفروضة عليه من الخارج إلى أخلاق خاصة به. الشئ الذى يسمى «التربية البناءة» هذا إلى جانب مفهوم أساسى هو «الجهد» فمن الخطأ إهمال هذا الجهد إذ أنه الوسيلة الوحيدة لتغير المجتمع وهنا لاتتحدث الكاتبة عن الجهد الفردى حيث يجد الطفل نفسه وحيدا ويخضع لقوانين الآخرين الذين يتفقون عليه. ولكن عن طريق العمل وسط المجموعة حيث يجدد الأطفال لأنفسهم منهجا وعملا معينا يقررونه بأنفسهم حسب مجهودهم وطاقاتهم. ودور المربى هنا هو أن يسلح هؤلاء الأطفال حتى يتحققوا مما يريدون عمله. وهذا أفضل اسلوب حتى لايتجاوزوا مع أنفسهم.

والتربية ليست طريقا فى اتجاه واحد. فهناك المرشد وأمامه كائن يقوم بخطواته الأولى. وعليه أن يأخذ بيديه ويساعده على النشاط أنفاسه حتى يستأنف المسيرة. ولكن كيف يتعلم الآباء أن يكونوا تربويين؟

عن هذا السؤال تجيب الكاتبة بكل ثقة: على الآباء أولا أن يجدوا لأنفسهم الوقت اللازم لأن يحيوا.

ويجئ الدور على الكاتبة فتطرح هى سؤالا فى قولها ان هذا المجتمع الذى يضطرنا لاحترام الأوزان والضوابط والمعايير الانتاجية هل مازال أمامنا الوقت لمعرفة وجهة نظر الآخرين. هؤلاء الذين يستجوبوننا؟ وهل مازال امامنا الوقت لنسمع تغريد العصافير، وهدير النهر، الذى ينساب جاريا؟ وهل أمامنا الوقت لنشم رائحة الزهور؟

ولأننا فى عصرنا هذا.. ذلك العصر الذى نعيشه. نقول إن الطفل فى حاجة إلى أن ينمو وإلى أن يحيا. □